المحاضرة الرابعة: النزعة الخلدونية في الفكر المعاصر

(توظيف الفكر الخلدوني بين النزعة العلمية والنزعة الايديولوجية)

الجزء الثاني

لما أكمل ابن خلدون تأليف مؤلفه "المقدمة"، والتي من خلالها وضع أسس قيام علم جديد ، أطلق عليه "علم العمران" كان ينتظر أن يكون له تأثيرا ويبعث على ردود حوله ممن يأتي من بعده.

وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون عن علمه الجديد أنه كانت له إرهاصات قبلية كباقي العلوم المسبقة، حيث ذكر أنه استفاد من العديد مما كتب قبله والتي كانت عبارة عن بحوث متفرقة غير مكتملة المعالم، لكنه أبدع من حيث جعلها أصلا لعلمه الجديد ففصل إجمالها واستوفى بيانها وميزها عن غيرها من مسائل العلوم الاخرى.

آملا -ابن خلدون- أن يتم التوسع والتحقيق والتدقيق في مؤلفه وتصليح اخطائه وتصويبها من طرف العلماء والمتخصصين الذين يأتون بعده، كما حدث لجميع العلوم التي أسست من قبل. فيقول في هذا: "فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنضاره وأنحاه، فتوفيق من الله وهداية. وإن فاتني شيء في إحصائه، واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأني نهجت له السبيل واوضحت له الطريق، والله يهدي لنوره من يشاء".

يقول مالك بن نبي: "إن فاعلية فكرة من الأفكار أو معرفة من المعارف إنما ترتبط بقيام ظروف اجتماعية واقتصادية ونفسية خاصة تعينها على التخمر والانتشار والتأثير... فإن فاعليتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة علاقتها بمجموع الشروط النفسية والاجتماعية التي ينطبع بها مستوى الحضارة في المجتمع... ومن أمثلة ذلك أن تراث ابن خلدون قد ظهر في العالم الاسلامي، وهو مع ذلك لم يسهم في تقدمه العقلي والاجتماعي، لأن هذا التراث... كان يمثل فكرة لا صلة لها إطلاقا بالوسط الاجتماعي".

هنا نطرح السؤال التالي: هل أن العلم الجديد الذي ابتكره ابن خلدون قد توسع وانتشر كما طمح صاحبه أم العكس هو الذي حدث؟

يرى البعض أن منطلق الفكر الخلدوني في المقدمة هو منطلق علمي لأنه مادي، وبالفكر الخلدوني ابتدأ الفكر العلمي في تاريخ الفكر العربي، لا سيما في حقل الفكر الاجتماعي أو العمراني وفي حقل الفكر التاريخي. نبدأ بالأول من هاذين الحقلين، ونورد هذا النص الذي يحدد المعالم الأساسية للقفزة العلمية التي قام بها الفكر الخلدوني في هذا الحقل.

"إن ابن خلدون لم يكن ذلك الملاحظ الذي ينقل إلى دفاتره ما يشاهده، تحت عدسة مجهره دون تحليل أو تعليل، ولم يكن صاحب "المقدمة" ذلك الكاتب الذي يحدثنا عن تجربته في شكل "يوميات" أو "اعترافات"، ولا كان ذلك "العالم العلامة" الذي يس ود المجلدات بما ينقله من أحاديث الأولين، أخبارا وفكاهة، وحكمة موعظة... ولم يكنفكر ابن خلدون جدولا من جداول مدرسة فكرية معينة، واضحة الأصول محددة الإطار... كلا، إن فكر ابن خلدون أكثر من ذلك وأعمق" (محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، 17).

في حين يرى البعض أنه تم توظيف التراث الخلدوني توظيفا ايديولوجيا، وذلك من طرف عديد المفكرين في العصر الحالي، حيث وغالبا ما تكون غايتهم ليست دائما معرفية خالصة، وابن خلدون ليس ليس في أعمالهم سوى ذريعة للدعوة إلى قيم جديدة وإلى ممارسات تقطع مع الماضي المتنكر من وجوه عدة للديمقراطية والعقلانية والتقدم، وما إلى ذلك.

"لقد استنطق الرجل تجربة العصر، وتجربته الشخصية معا، واستفتى أحداث التاريخ، وآراء من دخلوا التاريخ، من باب الفكر الواسع، فصاغ من ذلك كل آراء ونظريات، قديمة كأجزاء، جديدة ككل" (الجابري،17).

في الأخير يمكننا القول أن فكر ابن خلدون وكل ما أبدعه من أفكار وآراء وعلوم، لا يفهم إلا من خلال النظر إليه ككل، ولكن لما كان الكل لا يفهم حق الفهم، إلا من خلال فحص وتتبع أجزائه، والانتباه إلى مدى ترابطها بعضها ببعض، وجب البدء من الأجزاء نفسها وفي الوقت نفسه الاحتفاظ بوحدة الكل وسماته ولكن كثيرا ما نرى أن العديد من دارسي ابن خلدون ومنجزاته العلمية، أنهم يقومون بعزل الظروف والأحداث (تغييب الزمان والمكان) والقيام بالحكم عليه وعلى نزعته العلمية.